الكتابة التاريخية على باب الفراديس

بقلم : حسان البيطار

نشرت الكتابة النسخية الأيوبية التي تعلو باب الفراديس (المعروف بباب العمارة) أحد أبواب مدينة دمشق سابقاً (١) ، إلا أن نشرها كان فيه شيء من الخطأ يمكن أن يكون ناجماً عن عدم إمكان قراءتها تماماً بسبب الصعوبات التي كانت قائمة من وجود بعض الدكاكين ودور السكن في طرفي هذا الباب ، والتي كانت تحجب قسماً منها .

إلا أنه بعد أن قامت محافظة مدينة دمشق الممتازة خلال الشهر السادس من عام ١٩٥٠ باستملاك وهدم العقارات التي كانت قائمة فوق الباب وفي جانبيه بناء على اقتراح مديرية الآثار العامة ، أصبح بالامكان رؤية الاسكفة (٢) الكائنة فوق الباب ، وبعد تنظيفها بقدر المستطاع (٣) أمكن تصويرها وأخذ طبعة لها (استامباح) .

وبما أن لأبواب دمشق قيمة أثرية كبيرة ، ومن بينها باب الفراديس ، فقد عملت على دراسة كتابة هذا الباب ، وإظهار ما خفي منها على وجهه الصحيح ، وبصورة خاصة معرفة بانيه أو مجدده ، وتاريخ هذا البناء أو التجديد كما سيأتي فيما بعد .

---

(١) Reper. Chr. d'épigr. arab, T. XI, 2: fasc, N. 4246, P. 163.

(٢) الاسكفة : الحجر المستقيم الأفقي الذي يرتكز التي على نهاية عضادتي الباب ، وقد يطلق عليه بعضهم لفظ « عتبة » وهو خطأ إذ العتبة هي الحجر الذي يداس عليه أثناء المرور من الباب واسمها « السكاف » .

(٣) إن حالة هذه الأسكفة سيئة جداً فهي مؤتكلة كثيراً لما كان يترشح عليها من مياه الدور التي كانت تعلو الباب لدرجة أن أحرف الكتابة تكاد تتفتت بمجرد لمسها باليد . وقد عملت مديرية الآثار العامة على تقوية هذه الاسكفة وتدعيمها وحفظ الكتابة الباقية عليها .

يبلغ طول هذه الأسكفة التي هي عبارة عن عمود جلي جزء منه وزبرت عليه هـذه الكتابة (٤٩٦٫٥ سم) وارتفاعها (٦٩٫٥ سم) . وتتألف من ثلاثة أسطر بالخط النسخي الأيوبي الجميل ذي الأحرف الكبيرة ، يتخللها بعض الزخارف .

يبلغ ارتفاع أحرف السطر الأول من هذه الكتابة (١٣ سم) وارتفاع أحرف السطر الثاني (١٣٫٥ سم) وارتفاع أحرف السطر الثالث (١٢٫٥ سم) ، كما أن القسم الذي لم يكن ظاهراً من هذه الاسكفة يبلغ طوله (٧٥ سم) من جهة الشرق (شمال الناظر الى الكتابة) .

إن قسماً كبيراً من أحرف كلمات هذه الأسطر قد زال أو تفتت للسبب الذي بينته (٥) ، أما القسم الذي لم يكن ظاهراً فان أحرفه لا تزال بحالة جيدة . وفيما يلي نص الكتابة كما وردت في الـ (Reber) :

١ — بسم ا[لله الرحمن الرحيم] ..... هذا البـاب والسور المبارك مولا [نا ا] سلطا [ن] الملك الصا[ح] .....

٢ — المؤيد ..... [عماد] الدنيا والدين .....

٣ — ..... في شهر شوال .....

وقد أمكن قراءة الأحرف والكلمات المبينة فيما يلي وإضافتها على هذه الأسطر الثلاثة ، السطر الأول : من خلال بقايا بعض أحرف الكلمات أمكن قراءة [أمر بعمل ، السيد الأجل العالم العادل المجاهد] وظهرت بعد الهدم الكلمات والأحرف (هد المرابط المثاغر) .

السطر الثاني : إن كلمة [عماد] غير ظاهرة حالياً ، إلا أنه من المحتمل أن لا يكون غيرها ، إذ أنها من الألقاب التي أعطيت الذى أمر بعمل هذا الباب وهو الملك العادل سيف الدين أبو بكر كما سيأتي بيانه . وقد أمكن قراءة الكلمات [سلطان الاسلام والمسلمين ومبيد الطغاة و] ، وبعد إزالة الأبنية ظهرت الكلمات (المنافقين محيي العدل) .

السطر الثالث : قرئت فيه الكلمات [في العالمين ..... ابن أبي بكر] وظهرت الكلمات (سنة تسع وثلاثين وستمائة) .

وعليه فقد أصبح نص الكتابة بعد تمكننا من معرفة بعض الكلمات وظهور بعضها الآخر بالشكل الآتي :

---

(٥) الحاشية رقم ٤ .

١ — بسم ا[لله الرحمن الرحيم] أمر [؛] عـ [ـل] هذا الباب والسور المبارك مولا [نا ا] سلطا [ن] الملك الصا[ح] [ا] سيد الأ [جل ا] عالم العاد [ل المجا] هد المرابط المثاغر .

٢ — المؤيد ...... [عماد] الدنيا والدين [سلـ] طان الاسلام [والمسلمين ......] مبيد الطغاة [وا] منافقين محيي العدل .

٣ — [في] العالم [ين] (كلمتان أو ثلاث كلمات) ابن أبي بكر ...... في شهر شوال سنة تسع وثلثين وستمائة .

يتبين مما تقدم أن كلمات كثيرة قد تمكنا من قراءتها ومعرفتها أخيراً ، وأن الشيء الأساسي الذي له أهميته في الموضوع والمقصود من نقش الكتابة فوق الباب هو تثبيت اسم الباني أو المجدد ، وهذا ما لم تساعد الظروف والأحوال على تحديده من ذي قبل .

* * *

فقد جاء (٦) أن الملك الصالح أيوب بن الكامل محمد مَلَكَ مصر في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) وأخذها من أخيه العادل أبي بكر محمد ، وسبب ذلك أن أميراً من أمراء مصر يعرف بنور الدين بن فخر الدين عثمان كان أستاذ دار الملك الكامل وأخص الناس عنده ، فلما توفي الكامل حفظ دمشق على ولده العادل سيف الدين أبي بكر محمد رجاء أن يستنيبه بها ، فلما استولى عليها الملك الجواد ، فارقها نور الدين وقصد مصر ، فلم يلتفت إليه العادل سيف الدين وحطّ من منزلته ، فما كان منه إلا أن استفسد جماعة من الأمراء وخرج بهم وقصد الملك الصالح أيوب بن الكامل بدمشق ، وكان قد أخذها من الجواد ، فحسَّن له أخذ مصر من أخيه العادل ، ففرح بذلك وخرج من دمشق وتجهز للمسير الى مصر ، فوجد الملك الصالح اسماعيل ابن العادل محمد بن أيوب فرصة ونهض واستولى على دمشق .

ولقد كان هجوم الملك الصالح إسماعيل هذا ، صاحب بعلبك ، على دمشق واستيلائه عليها في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) وقد دخلها بغتة من باب الفراديس بصحبة أسد الدين شيركوه صاحب حمص (٧) .

وفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) استعاد الملك الصالح أيوب بن الكامل محمد دمشق ، بعد

---

(٦) الحوادث الجامعة لكمال الدين البغدادي ، ص ١٤٠ .
(٧) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٣ .

حصار شديد ، تم الاتفاق بنهايته أن يترك الملك الصالح إسماعيل دمشق وينفرد ببعلبك (٨).

وجاء أيضاً أنه في سنة اثنتين وأربعين وستمائة أمد الملك الصالح نجم الدين أيوب عساكر الخوارزمية بالخلع والنفقات وجهز عسكراً معهم وعليهم معين الدين بن الشيخ وأمر بمحاربة عمه (٩) ...

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة (١٢٤٥ م) زحف ابن الشيخ والخوارزمية على دمشق ، واشتد البلاء ، ودام حصارها مدة خمسة أشهر إلى أن تسلم نواب صاحب مصر دمشق ، وانفصل عنها الملك الصالح إسماعيل (١٠) إلى بعلبك .

ويذكر ابن كثير (١١) أنه في سنة اثنتين وأربعين وستمائة (١٢٤٤ م) حصلت وقعة عظيمة بين الخوارزميـة جند الصالح أيوب صاحب مصر وجنود الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق بالقرب من غزة ، هزم على أثرها جند الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص والفرنج الذين اتفقوا معه .

وفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) أرسل الصالح أيوب الخوارزمية ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين بن الشيخ ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه أبا الحسن صاحب دمشق ، وامتد الحصار شهوراً من هذه السنة الى جمادى الأولى ، الى أن اتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل الى بعلبك ويسلم دمشق الى الصالح أيوب .

وجاء أيضاً (١٢) أنه في شهر صفر سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) سار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك وشيركوه صاحب حمص وهاجموا دمشق وحصروا قلعتها وتسلمها الصالح إسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب ، وكان الصالح أيوب بنابلس لقصد مصر .

وفي سنة ٦٤٣ هـ (١٣) سير الصالح إسماعيل وزيره الغالب على راية أمين الدولة ، كان سامرياً ، وأسلم الى الخليفة ليشفع في الصالح بينه وبين أخيه ، فأبى الخليفة ذلك ، وفي هذه السنة تسلم عسكر الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح إسماعيل

---

(٨) الحوادث الجامعة لكمال الدين البغدادي ، ص ٣٠١ .
(٩) دول الاسلام للحافظ شمس الدين أبي عبد الله ، ج ٢ ، ص ١١٢ .
(١٠) » » » » » » ج ٢ ، ص ١١٣ .
(١١) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(١٢) تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .
(١٣) » » ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

ابن العادل ، وكان محصوراً معه فيها إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، تسلم دمشق ، لتستقر بيد إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد ، وتستقرّ بيد صاحب حمصٍ حمصُ وما معها ، فأجابهما ابن الشيخ الى ذلك .

مما تقدم يمكننا الجزم بأن الذي أمر بعمل هذا الباب والسور هو الملك الصالح إسماعيل ابن العادل سيف الدين ، إذ أنه هو الذي كان مالكاً لدمشق خلال الفترة الواقعة بين سنتي (٦٣٨ / ١٢٤٠) وأوائل سنة (٦٤٣ / ١٢٤٥) وبما أن تاريخ تجديد الباب هو سنة (٦٣٩ / ١٢٤١) فمن المحتم أن يكون الملك الصالح إسماعيل هو الذي أمر بعمله .

ولو أن تتمة الكتابة لم تظهر أو لو أنها كانت مهشمة أو مفتتة ، وظلّ المعروف عن تاريخ الكتابة أنها من عمل سنة (٦٤٣) كما ورد في الـ (Reper) ، لكان من المحقق أن يكون الذي أمر بعمل هذا الباب والسور هو الملك الصالح نجم الدين أيوب . إذ المعروف أن الملك الصالح إسماعيل غادر دمشق في شهر جمادى الأولى من سنة (٦٤٣) ودخلها الملك الصالح أيوب ، وبما أن الذي كان ظاهراً من الكتابة يثبت أنها نقشت في شهر شوال دون ذكر السنة ، وكان من الحوادث التاريخية الثابتة معلوماً أن الملك الصالح أيوب هو الذي كان مالكا لدمشق في ذلك التاريخ ، فكان من المحتم أنه هو الذي أمر بعمل الباب والسور . إلا أن ظهور السنة (٦٣٩) التي عمل فيها هذا الباب والسور قطع كلّ شك وثبّت أنهما عملا في زمن الملك الصالح إسماعيل .

حسان البيطار
أمين مكتبة مديرية الآثار العامة

